كلمة ختامية

في شهر يناير/ كانون الثاني 2006، مع اقتراب نهاية السنة الثالثة لحرب العراق، وصلتُ إلى بغداد في عيد الأضحى، العيد الذي يأتي في أعقاب الحج إلى بيت الله الحرام في مكة. كانت شوارع المدينة فارغة، إلا من الصفوف الطويلة من السيارات التي تنتظر أمام محطات الوقود، فقد كانت بغداد تعاني أزمة وقود، سببها الأساسي الهجمات على محطات التكرير وأنابيب النفط، مما أدى بدوره إلى زيادة عجز الكهرباء الذي أصبح يقطع التيار الكهربائي الآن ثماني عشرة أو عشرين ساعة يومياً في العاصمة. في الليل، كانت أحياء كاملة يعمّها الظلام. كانت الدوريات الأمريكية أقل مما اعتدت مشاهدته، وكان هناك عدد أكبر من رجال الشرطة والجنود العراقيين عند نقاط التفتيش. كان فندق فلسطين الذي كان من الصعب على الصحافيين والمتعهدين في السنة الأولى بعد سقوط النظام أن يجدوا غرفة فيه، أصبح فارغاً إلا أربعة من طوابقه الثمانية عشر. ففي بداية شهر ديسمبر/ كانون الأول كاد انتحاري يقود شاحنة إسمنت محمّلة بالمتفجرات يُسقط البرج، وبعد شهر كانت نوافذ مبنى الإدارة، المقصوفة مغطاة بالنايلون، والأسلاك تتدلى من السقف. كان معظم العاملين في الصحافة الأجنبية قد عادوا إلى بلادهم. جلس المدير وحيداً إلى مكتبه في مبنى الإدارة وكأنه يتوقع عودة الزبائن في أي لحظة. وفي الخارج، كانت هناك لوحة تعرض أسعار المشروبات الكحولية. مرّ بي صبي في نحو العاشرة من عمره، وسألني بلهجة جنوبية عدوانية قد تكون آخر إسهام لجندي أمريكي في تغيير العراق: «هل تبحث عن شيء؟».

شعرت، وكأن الأمريكيين قد تخلّوا عن العراق لمديري الفنادق الذين ليس لديهم عمل، ولأطفال الشوارع، ورجال الميليشيات المسلّحة. يكاد المرء يتخيل أنه بعد ثلاث سنوات من الاحتلال، وبعد عشرات المليارات من الدولارات وآلاف الأرواح والجهود المحمومة التي بذلها الأجانب والعراقيون لانتشال البلاد من تاريخها، انتهى فاصل الرؤى الكبرى، وها هو العراق يعود إلى طبيعته الطائفية والشريرة.

الحقيقة أن الأمريكيين لا يزالون هنا، معظمهم مختبئ الآن بعيداً في مجمعات عالية الأسوار أو في الصحراء في القواعد النائية التي تشبه المدن الصغيرة. كما أن العراق لم يُعد شبيهاً بما كان. لقد كان يدخل حقبة لم يعرفها العراقيون، وكانوا يخافونها جدًّا. كان قادتهم المنتخبون في ديسمبر/ كانون الأول 2005 في انتخابات عمّت البلاد ووصلت إلى إجماع المجموعات الثلاث الأساسية في البلاد، يحاولون تشكيل أول حكومة تمثيلية في تاريخ البلاد، في تلك الأثناء كان العراقيون في كل شارع، وفي كل قرية يقتلون مواطنيهم بأعداد رهيبة.

كان التمرد السنّي دموياً بلا هوادة كما كان. وكانت بعض الميليشيات الشيعية الآن، المتخفية بمظهر قوات الأمن الرسمية التي اخترقوها، يشنّون غارات على الأحياء السنّية ويجمعون الشباب السنة الذين يختفون في سجون سريّة أو يظهرون مقيّدين، معصوبي العيون، وأمواتاً في الشارع أو في قبور سطحية، وقد أحرقت جثثهم، وملئت بالثقوب، وشوّهت، وأطلق عليها النار في الرؤوس. بعد سنوات من التفجيرات الانتحارية والقتل الجماعي للمدنيين الشيعة على يد المتمردين السنة، بدأ رجال الميليشيات الشيعية بتجاهل مشورة آية الله السيستاني بضبط النفس، وكانوا ينتقمون، ناشرين الخوف بشكل واسع بين السنة أول مرة. وفي دورة الانتقام، كان الشيعة يُطردون من الأحياء ذات الغالبية السنية في غرب بغداد والمدن المختلطة المحيطة بالعاصمة، بينما يقف جيرانهم الذين قضوا معهم شطراً طويلاً من حياتهم دون أن يقولوا شيئاً. كانت آلاف العائلات المشرّدة تتجمع في المخيمات والملاجئ حول بغداد، حتى وصل الأمر إلى حملة للتطهير العرقي في حرب أهلية ذات درجة منخفضة.

كان العراقيون يتجنبون دوماً عبارة «حرب أهلية» كأن مجرد النطق بها قد ينشر روحاً خبيثة في الجو. وكانوا يصرّون أن الهويات الإثنية والطائفية أُحضرت إلى العراق بعد الغزو على يد الأمريكيين وحلفائهم المغتربين. وكان العراقيون سابقاً يعيشون معاً، في عائلات مختلطة وأحياء مختلطة، طوال عقود وقرون. وإشعال حرب أهلية يعني تحويل أسرة واحدة أو زوجين إلى أعداء. كانوا يقولون: إن هذا لا يمكن أن يحدث هنا، بمعنى: «لا نريد أن يحدث هذا هنا»، ولم يكن الموضوع موضع ترحاب لدرجة أن حتى ذكر كلمة «سني» و«شيعي»

كانت تعد قلة أدب. لكن بعد ثلاث سنوات من السياسة والعنف الممتد على طول الخطوط الطائفية أصبحت هذه الكلمات تستعمل بشكل مفتوح، مع خوف وكراهية.

أصبح حي الدورة حي الطبقة الوسطى من السنة والشيعة والمسيحيين في جنوب بغداد، نقطة الصفر للعنف الطائفي. بدأ ذلك بقتل الحلاقين، كما أخبرني رجل أعمال من الدورة: قرّر المتطرفون السنة أن حلق اللحى ضد الإسلام، ووسّعوا المنع ليشمل قصات الشعر الغربية. قال رجل الأعمال: «بعد الحلاقين، انتقلوا إلى وكلاء العقارات»، فقد صدرت فتوى بأنه لم يكن هناك بيع أو شراء للعقارات على زمن النبي ﷺ. ثم صار بائعو الثلج يُقتلون في الشوارع؛ لأن الثلج لم يكن يباع في القرن السابع. ثم استهدفوا أصحاب محال البقالة، وأصحاب محال الصرافة، وأصحاب محال الثياب. قال رجل الأعمال: «في ذلك الوقت، كانوا يعطون أسباباً، لكن بعد ذلك تطوّرت الأمور وأصبحوا يقتلون دون سبب»، كل يوم في وسط المنطقة، حول السوق الآشورية، كانت تُوزّع شفهياً قائمة بأسماء الدفعة اللاحقة من الضحايا المقرر قتلهم -وهم في الغالب من التجار ودائماً من الشيعة- وأثناء أيام، كان أولئك الذين لا يأخذون احتياطات يُقتلون رمياً بالرصاص في وضح النهار على يد رجال مسلّحين من خارج الدورة. لا يتدخل رجال الشرطة في أقسام الشرطة المحلية، أما الأمريكيون فلا يدخلون المنطقة إلا فيما ندر، على الرغم من أن رجل الأعمال قال إنه يذهب للنوم ليلاً مع أصوات إطلاق الرصاص والطائرات المروحية التي تحوم فوق المدينة وإسقاط القنابل، وكأنه يعيش على الخط الأمامي للمعركة، وقال: «الدورة خارج سيطرة الحكومة»، ولم يبقَ فيها أحد من الشيعة تقريباً.

قال مسؤول عراقي رفيع المستوى على اتصال بالاستخبارات السرّية: إن حملة القتل في الدورة هي جزء من جهد إستراتيجي من المتمردين السنة «لإعادة تشكيل أرض المعركة»، لإخلاء المنطقة من الأعداء المحتملين واستخدامها منطقة إستراتيجية للهجمات في بغداد. كان في الدورة بنية تحتية أساسية -مصفاة النفط ومحطة توليد الكهرباء- وهي تقع على الطريق من المناطق التي تهيمن عليها العشائر السنية جنوب بغداد إلى قلب المدينة. وقال المسؤول: إن أعمال القتل هناك جزء من أسلوب، ينتقل من الهجمات على الوحدات العراقية والأمريكية التي كانت تعرّض المتمردين لمخاطر كبيرة إلى قتل الأفراد من المسؤولين

والمواطنين العاديين، بهدف زعزعة ثقة الشعب بقدرة الحكومة على حمايتهم. وقال: إنه في شهر يناير/ كانون الثاني، كان هناك سبع مئة من هؤلاء القتلة ذوي الدم البارد، وهو الرقم الأعلى في مدة الحرب حتى ذلك الشهر. «لذا فقد يكون عام 2006 عام الاغتيالات والهجمات على البنية التحتية».

مهما كانت الأسباب الإستراتيجية لأعمال القتل، فقد خلقت هستيريا طائفية لم يعرفها سكان بغداد من قبل.

التقيت جزّاراً اسمه محمد كريم جاسم، يملك متجراً في طريق مزدحم، كان المدخل مسدوداً بالخراف المذبوحة المعلّقة. وكان أخوه جزّاراً أيضاً، ولديه محل في الدورة. في صباح أحد أيام شهر يناير/ كانون الثاني، كان أخوه يقطع اللحم لزبونتين حين دخل رجل إلى المحل، واستأذن من المرأتين، وتقدّم إلى الطاولة قائلاً: «صباح الخير». نظر الأخ إليه وقال: «صباح الخير»، وقُتل برصاصة في أنفه. أسرع ابنه إلى الغرفة، وهو يصرخ: «أبي، أبي!» فقُتل هو أيضاً. وجاء أخوه الثاني، وهو جزار أيضاً، جرياً من محل مجاور وبيده سكين؛ فأردي قتيلاً أيضاً.

حين جلست بعد عشرة أيام مع الأخ الذي نجا، وهو رجل شجاع ملتحٍ في الخمسينيات من عمره، كان يلهث من الغضب. «الأوغاد القذرون. ليس لهم إيمان ولا قادة دينيون، منذ عهد أبي بكر وعمر حتى الآن»، قال الأخ، عائداً إلى القرن السابع مباشرة: «السبب الوحيد لذلك هو أننا شيعة وأننا نحب الإمام علي». عبّر عن مرارة كبيرة، لأن القادة السياسيين والدينيين السنة نادراً ما يدينون قتل الشيعة، وكان يائساً من حماية القوات الأمريكية أو قوات الأمن العراقية. تنهّد الجزّار وقال: «لو أعطى قادتنا الدينيون فتوى، لما بقي هناك سنة في العراق. فمن يبقى منهم سيُقتل، كان على الجميع أن يغادروا؛ لأن الجميع هنا كسير القلب. أتمنى لو أستطيع أن أمسكهم بيديّ وأذبحهم. أنا أستطيع ذلك، فأنا جزّار».

لكل مجموعة قصة عن وقوعها ضحية، في منافسة شرسة مع مجموعة أخرى. في أحد الأيام، زرت مقر الحزب الإسلامي العراقي في غرب بغداد، وهو أكبر الأحزاب السنية

في البلاد، وله جذور في الإخوان المسلمين. كان على جدران مكتب حقوق الإنسان في مقر الحزب صور لجثث تحمل علامات تعذيب، على يد قوات وزارة الداخلية، حسب قول مسؤول في الحزب. وبينما كنت في المكتب، وصل زوجان عجوزان في حالة ذعر. فقبل أسبوع، في الساعة السادسة صباحاً، اقتحم خمسة عشر رجلاً من كوماندوز الشرطة بيتهم وعلى وجوههم أقنعة سوداء، وأخذوا ابنهما من فراش الزوجية. ومنذ ذلك الوقت لم يستطع الوالدان الحصول على أي معلومات عنه. وصفت المرأة العجوز رجال الكوماندوز بأنهم من عناصر منظمة بدر، أكبر الميليشيات الشيعية في العراق. كان أحد قادتها، بيان جبر، وزيراً للداخلية في السنة الماضية واتُّهم بالسماح للميليشيات الشيعية بالتسلل إلى المكاتب المهمة في الوزارة، وإحداث وحدات شريرة ضمن قوات الشرطة. وأصبح السنة الآن بشكل روتيني يدعون السياسيين الشيعيين مثل بيان جبر بالإيرانيين؛ حتى إن الأم أسمته باسم فارسي. وصاحت الأم: «عمري خمس وخمسون سنة ولم أرَ شيئاً كهذا. إنهم يأتون به من إيران، من الفرس، إيران، التي تحاول الآن الحصول على القنبلة الذرّية لتدمير العالم».

قال مسؤول الحزب عمر هاشل الجبوري للزوجين: إنه سيتصل بوزارة الداخلية للاستعلام عن الموضوع، ولمنع قتل ابنهما في أثناء التحقيق والتعذيب. وقال: إن هناك مئة شخص يأتون إلى مكتبه كل يوم لتقديم شكاوى، وإن كثيراً منهم قد نام على السرير الذي في زاوية الغرفة. وقال: «المشكلة الرئيسة هي أن إخواننا الشيعة بارعون في البكاء على معاناتهم. أما نحن الآخرون فلسنا بهذه البراعة».

كان العراق يتفكك، ليس إلى ثلاث مناطق مستقلة، كما يحلم بعض السياسيين، وإنما حي بعد حي، إلى آلاف القطع. لم يكن هذا صحيحاً فقط في بغداد والمناطق المحيطة بها، أو في المدن المختلطة كالموصل وكركوك، وإنما في الجنوب أيضاً. فانتخابات يناير/ كانون الثاني 2005، التي صنعت للمواطنين العراقيين يوم انتصار واحد، أعطت القوة للمجموعات الشيعية التي كانت تحكم كمنظمات مافيا، وليس بوصفها أحزاباً وطنية. بعد عام، أصبحت البصرة مليئة بالميليشيات: أجزاء من منظمتي الصدر وبدر، مع عصابات غامضة ذات إدارة إيرانية، ولكل منها رجل دين خاص بها، حتى أصبحت تسمى فرق الموت، واستلمت

إدارة الشوارع. وقد روى لي مسؤول التقيته في أثناء الانتخابات في البصرة أن خمسين شخصاً -من الأطباء والمدرّسين والمسؤولين وطلاب الجامعات- تم اغتيالهم في يوم واحد في أنحاء المدينة. كانت فرق الموت تتحرك في أزواج من السيارات التي تعرف باسم بطة، وقد كتب مسؤول: «لهذه السيارة قصة مروعة، وعلى أي شخص أن يتجنب هذا النوع من السيارات، التي لها نوافذ زجاجية سوداء، وبها أربعة رجال مسلّحين، ودوماً هناك سيارة أخرى تتبعها، ويجلس فيها بعض الأشباح غير المرئيين»، وفي صباح أحد الأيام، بينما كان المسؤول يقود سيارته إلى العمل، وجد نفسه عالقاً بين سيارتين من نوع بطة، وحين خرج المسلّحون بهدوء واقتربوا منه، ظن أن فرق الموت قد أتت لاغتياله، لكنه شاهد إعداماً للرجل في السيارة التي بجانب سيارته. وكتب: «هناك آلاف الناس مثلي. نحن في العراق قلوبنا من خشب، وعيوننا مليئة بالرمل، ونحن كالخراف تحت أمر الراعي، في انتظار سكين الجزّار».

كان تفكك العراق قد بدأ منذ وقت طويل، وقد بدأ بشكل ما قبل عبور الأمريكيين للحدود الكويتية في آذار 2003. لكن في عام 2006 كان يحدث بسرعة تنذر بالخطر، وكانت له جميع الإشارات التي تدل على أنه لن يتوقف. وأصبح العراقيون الذين كانوا يقولون: إن العراق بحاجة إلى سنة أو اثنتين ليخرج من العنف، ولكنهم يتحدثون عن عقد من الزمن أو أكثر، مما يعني جيلاً من الفوضى بعد أجيال الاستبداد.

لم يتوقف العراق يوماً عن تقديم التناقضات. فقد أسهمت السياسات والتكتيكات العسكرية الأمريكية في زيادة قوة التمرد وانتشار العنف الطائفي الذي أعقبه. ومع ذلك، في الشهر نفسه الذي رأيت فيه كم تدهورت بغداد، رأيت أيضاً دليلاً على أن الجيش الأمريكي كان يتعلم أخيراً كيف يحارب التمرد بطريقة فاعلة. في مدينة تلعفر التي تقع في الشمال الغربي، التي سقطت مراراً في قبضة المتطرفين السنة بعد إخفاق الأمريكيين في السيطرة عليها، أمضت كتيبة مسلحة من سلاح الفرسان بقيادة كولونيل متألق اسمه هـ. ر. ماكماستر، معظم عام 2005 في المدينة، وهي تقوم بتطوير العلاقات مع السكان المحليين، وتدريب شركائها في الجيش العراقي، وتتدرب على الإستراتيجية التقليدية لمكافحة التمرّد، وتفصل المدنيين عن التمرد، وتقدّم الأمن وتنشئ المؤسسات الحكومية التي تستطيع أن

تكسب دعماً شعبياً. كان هذا كله يتطلب وجوداً كبيراً طويل الأمد للأمريكيين في المدينة واستعداداً للمخاطرة وتحمل الإصابات. كان ماكماستر والضباط الشباب في كتيبته قد تدربوا على هذا المنهج في كولورادو وتولّوا مسؤوليته في تلعفر بمبادرة خاصة منهم، بصفته ثورة ضد الإخفاق الفكري لقادتهم المدنيين والعسكريين رفيعي المستوى. في تلعفر التي كانت كالفلوجة في الشمال، استطاعت القوات الأمريكية والعراقية أن تحقق سلاماً هشاً. وقد رأيت ما كان يمكن أن يحدث لو تم القيام بهذه الأمور منذ البداية.

كان الإنجاز قليلاً ومتأخراً. فبعد سنوات الأخطاء والإستراتيجية المفككة من البنتاغون والبيت الأبيض، ضعف نفوذ أمريكة في العراق بشكل كبير. كان عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين الذين لا يزالون هناك، الذين كانوا يُقتلون فرادى أو ثنائيات، يتمسكون بأماكنهم، ويحاولون صدّ الهجمات، في محاولة لتشكيل حكومة وطنية، حتى تستطيع أن تصبح حقيقة واقعة على الأرض، بينما يقومون بمكافحة أسوأ أشكال التمرد: خيال الحرب الطائفية الكاملة والحرب الإقليمية التي يمكن أن تستنفد الشرق الأوسط كله، وتترك العراق في قبضة الميليشيات والإرهابيين والجيران اللصوص. قد تكون أمريكة قادرة على تجنّب أسوأ ما في العراق، لكن ليس هناك أمل في بلد مستقر ومحترم قبل سنوات من الآن. كانت هذه الفرصة تضيع حين ذهبت إلى هناك أول مرة في صيف عام 2003 المليء بالأمل والمتاعب؛ أما الآن فكانت قد ضاعت منذ وقت طويل.

أثار إخفاق السياسة الأمريكية في العراق أكبر الأسئلة وأصعبها عن الحرب. هل كان التمرد لا مفر منه؟ هل يمكن توقع بقاء مجتمع معطوب ومفكك كهذا جزءاً واحداً، إن لم نقل إيجاد طريقة للديمقراطية؟ فهل كان من الممكن لإدارة الرئيس جورج بوش أن تنجح في مشروع صعب كهذا، يتم إنجازه بمثل هذا التكبر والعمى، مع قليل من الأصدقاء وكثير من الاستخفاف بالمجتمع الدولي؟ وقد ثبت أن السبب المعلن للحرب -وهو أسلحة الدمار الشامل والارتباطات بالإرهاب الدولي غير صحيح- أو مبالغ فيه. هل كان من الممكن لأي سبب آخر -كإنقاذ بلد كانت أمريكة توقعه في المكائد منذ سنوات، أو إنهاء الاستبداد، أو بداية لإصلاح عربي- أن يسوغ ذلك؟

ما زال من الممكن تحقيق أهم آمال مهندسي الحرب في أثناء جيل أو جيلين، وأن يؤدي تغيير النظام في العراق إلى تقدّم الديمقراطية وتراجع التطرف في الشرق الأوسط. لكن صنّاع السياسة خاضعون للمساءلة ضمن معايير هيئاتهم الرقابية. أما في الوقت الحاضر، وفي المستقبل المنظور، فقد تضررت المصالح الغربية الأمريكية والليبرالية بشكل بالغ، بسبب حرب العراق. كانت الحرب كارثة لجيشنا الذي عانى القتل والإصابات المحزنة، وخسر الكثير من شرفه في «أبو غريب»، وفي موت عدد كبير جدًّا من المدنيين العراقيين، ووصل إلى نقطة قد يكون فيها الانسحاب ضرورياً ببساطة بسبب نقص القوات. قام معظم الجنود بكل ما طُلب إليهم، لكن كثيراً من أفضلهم -بمن فيهم جون بريور- قرّروا أن يتركوا مؤسسة يحبّونها. تميز الإخفاق في العراق بقلة المساءلة في واشنطن التي أرسلت أخيراً عدداً من الجنرالات المتقاعدين الكتومين للقيام بشيء لم يسبق له مثيل تقريباً في التاريخ العسكري الأمريكي: أن يتحدثوا علناً، ويشيروا بإصبع اللوم إلى مديرهم السابق، دونالد رامسفيلد.

يسهل تقدير التكاليف المباشرة التي تحملتها الخزينة الوطنية، التي تجاوزت الآن 300 مليار دولار، أما انهيار التحالفات، وخسارة القوة والسمعة الأمريكية، واستنزاف الاهتمام والموارد من أزمات أخرى، ولا سيما النزاع ضد الخطرين المتلازمين في العالم، وهما الجهاد والانتشار النووي، فهي خسائر صعبة التقدير، لكنها لا تقل واقعية. أثبتت نتائج الحرب أنها كانت خطأً كبيراً، لا يحدث إلا مرة كل بضعة أجيال.

أنهت حرب العراق عصر التدخل الإنساني الذي ساعد في جعلها قابلة للتفكير فيها. كشفت الحرب عما كان واضحاً مسبقاً للجنود ذوي الخبرة وكان يجب أن يكون واضحاً أيضاً للمثاليين المدنيين، وهو أن الهدف الأخلاقي المصحوب بالقوة، دون المعرفة والحكمة، يمكن أن يكون أكثر خطورة من غير المبالاة. لا يمكن معرفة نتائج أي حرب، باستثناء الموت الذي لا مفر منه، وقد كانت الأرض في العراق لا تساعد في بناء شيء جيد ومتين. إن الحرب لإنهاء الاستبداد هناك -وإن كان وحشياً كاستبداد صدام حسين الذي تتحمل الولايات المتحدة مسؤولية تاريخية عنه، أولاً بتسليحه ضد إيران، ثم بتركه في السلطة عام 1991، وأخيراً بفرض العقوبات التي دمّرت حياة ملايين العراقيين- يجب عدم القيام بها كما كانت بشرعية قليلة في نظر العالم. ليس هناك شيء لا مفر منه؛ فالبشر المنظمون في

أنشـطة تدعي السياسـة والحرب، يجعلون الأمور تحدث بالشكل الذي تحدث به، وربما كان من الممكن أن يتحول العراق على نحو مختلف لو تصرف البشر المعنيون بشكل مختلف. لكن الحرب أداة غير حادة، بحيث يجب عدم استخدامها، حين تكون فرص النجاح ضئيلة.

أثارت الحرب وجهة نظر مشـككة جـدًّا: بأن العراقيين كانوا دومـاً عاجزين عن العيش معاً، وعن تشـكيل أمة، وإنشاء ديمقراطية؛ وأن لديهم الثقافة الخطأ. صحيح أنه ما إن رُفع الغطـاء حتى ظهـر أن العراق أكثر تديناً وأكثر قبلية وأكثرغموضـاً وأكـثر عنفاً مما تخيّله معظـم الغربـاء. لم يكن لهذا علاقة بشـيء موروث وثابـت يدعى «الثقافـة العراقية» بقدر مـا كان لـه علاقة بتاريخ حكومة بالقوة، مـن الحدود العراقية التي رسـمها الأوروبيون إلى الضـرر الذي أوقعته خمس وثلاثون سـنة من حكم البعثيين. فإذا سـيطرت الفئات الأفضل تسـليحاً والأقل تسـامحاً على عراق ما بعد صـدام، فلا يمكن لهذا أن يعكس الإرادة الحرة للشـعب العراقي. كان الخطأ الأصـلي للأمريكيين هو إيجاد الظروف المواتية للفوضى. من لحظة سـقوط النظام السـابق لم يسـلم أحد من التخويف العنيف، وكانت المسـألة مسـألة وقت فقط حتى أصـبح المتمردون والميليشـيات أقوياء. لم يسمح للمواطنين العراقيين، مهما كان المجتمع الذي أرادوا أن يعيشـوا فيه -الذي لم يكن كثير منهم يعرفونه بعد- بممارسـة فـن المواطنة. أظهـرت الانتخابات الثلاثة عـام 2005 أن العراقيين قادرون على الشـجاعة والنضوج السياسـيين، لكن الانتخابات أقرّت أيضاً ما أصبح أمراً واقعاً في الشوارع مسبقاً؛ فالعنف الطائفي أدى إلى تصـويت طائفي. تبع حكم المسـتبد حكم المسـلّحين. حين أخفق الأمريكيون في ضـمان أمـن العـراق، أخفقوا أيضـاً في إعطـاء العـراقيين الحـرية الحقيقيـة لتقريـر مستقبلهم بأنفسهم.

سـواء كان ذلك للأفضـل أم للأسوأ، فإن مصـيرنا مرتبط بمصيرهم الآن. لا يمكن أن يكون هناك انسـحاب على مراحل من العراق المسـتقبلي. يبدو أن الانسحاب الكبير للقوات الامريكية في عامي 2006 و2007 كان حتمياً. سواء حصل وفق جدول زمني قرره السياسيون الأمريكيون، عبر خطة تمت مناقشتها بين الحكومتين الأمريكية والعراقية، أو حسب نصيحة قـادة الجيش تحت الضـغط الكبير لإظهـار النجاح علـى الأرض، فإن للانسـحاب علاقة بالسياسـة الأمريكيـة أكثر من علاقتـه بالحرب في العراق. إن النقاش في واشـنطن مغطى

بالتحيّـز والوهـم، لدرجة أنه لم يعد لـه معنى تقريباً. وكي يكون للعراق أي فرصـة حقيقية للاسـتقرار سـيكون هناك حاجة لبقاء أعداد كبيرة من القوات في العراق، تشـترك بشـكل كبير في الأمن وإعادة الإعمار، سـنوات قادمة. ربما سـتقرر الحكومة الأمريكية أن الالتزام الأمريكي واسـع النطاق قد حقق كل ما يسـتطيع في العراق، وأن مصـالحنا الوطنية تتطلب نقـل القوات إلى الكويت أو قطـر، حيث تحاول تأمين موارد النفط، ومنع الدول المجاورة من التجاوز، والتصـرف بصـفة قوة تدخل فقط كملاذ أخير إذا حقق التمرد مكاسـب كبرى، وكانـت الحكومة العراقية توشـك على السـقوط. وإذا جاء ذلك اليـوم، فلن يكون له علاقة بالنجاح في العراق. سـتعلن الإدارة الفوز، وتعلن المعارضة التبرئة، لكن العراقيين سيعرفون أنهم تُركوا لتسـوية أمورهم فيما بينهم. وعلى الرغم من أن الوجود الأمريكي في العراق قد أثار الاضـطراب في الشـرق الأوسـط، فإن مغادرة الأمريكيين الآن لن تؤدي إلا إلى تحسين وضـع القوى الإقليمية -إيران والسعودية وتركية- وتغريهم لملء الفراغ الذي خلّفته. كما أن هنـاك احتمالاً كبيراً أن يصـبح غرب العراق خارج السـيطرة الحكومية سـواء العراقية أو الأجنبية، ويصـبح قاعـدة لعمليات الجهاد الإقليمية. كما أن محاولـة إقامة حكومة تمثيلية وجمع العراق ضـد قوى العنف والتقسـيم سـيكون لها نتائج دائمة للأمريكيين، أكبر كثيراً من نتائج فييتنام. ففكرة أننا نسـتطيع سحب قواتنا والاكتفاء بذلك، تاركين العراقيين لحلّ أمورهم، ضرب من الخيال.

أظهر العراقيون صـبراً ومرونة في أثناء الكابوس الجديد الذي وجدوا أنفسـهم فيه بعد أن صـحوا من كابوس صدام، وهي صـفات اكتسبوها من سنوات المعاناة الطويلة، وهذا أحد المصـادر القليلـة للأمل التي أسـتطيع أن أجدهـا في العراق اليوم. فالناس البسـطاء الذين أعرفهم هناك ويتوقون لعيش حياة لائقة، دون تفجيرات انتحارية أوانقطاع للتيار الكهربائي أو شـرطة سـرّية، يجعلون من الصـعب علي أن أكتب عما يجري على أنه كارثة لا علاج لها. اسـتغرقت وقتاً طويلاً؛ حتى أسـتطيع التفكير في الأسئلة التاريخية الكبرى المتعلقة بالحرب؛ فهي بحاجة للبعد عن الأمل والمعاناة في العراق، وهذا ما لم أسـتطع تحقيقه. فما إن سـقط النظـام، وبدأت بالسـفر إلى هناك، حتى سـقطت جميع الحجج حول ميـزات الحرب. كان الأكثر أهمية هو الصراع الذي يتم تمثيله في أرجاء العراق، ولم يكن لدي شك في المكان الذي

يقع فيه تعاطفي: كنت أريد أن يكون لدى العراقيين فرصة لعيش حياة لائقة كانوا قد حُرموها طويلاً. كنت أريد ما أطلق الغزو الأمريكي العنان لنجاحه. كما كنت أريد أن أفهم سبب إخفاقه، لكن مشاعري جعلت الانفصال الذي يحتاجه التحليل الموضوعي أمراً مستحيلاً.

بسبب كل الرعب الذي يسود الحياة اليومية في بغداد، أردت دائماً أن أعود إلى هناك، حين كنت هناك لم أكن أرغب في المغادرة. كان هناك شيء مثير بشكل غريب حول المكان حتى بعد أن بدأت أسوأ أعمال العنف. كانت اللقاءات بالناس أقوى، وكانت العلاقات تتشكل بسرعة، والمحادثات تسير مباشرة نحو الموضوع، لم يخجل العراقيون الذين عرفتهم من التعبير عن المشاعر القوية، وكذلك الأمريكيون، بمن فيهم الجنود. وكان الناس الذين لم يمضِ على تعارفهم إلا وقت قصير مستعدين أحياناً للمخاطرة بحياتهم لأجل بعضهم. وكانت الأخبار في العراق مليئة بوحشية لا يمكن التحدث عنها، لكن تجربتي هناك تميزت بالكرم واللطف بقدر أكبر كثيراً، وكنت دوماً أجد صعوبة في أن أترك ورائي أصدقاء عليهم مواصلة الحياة هناك، وتصبح حياتهم في خطر يزيد كل يوم.

وصلت إلى شعور بأن ردّ الفعل تجاه أحداث السنوات القليلة الماضية لم يكن التسويغ أو اللوم، وإنما مجرد الحزن على آمال وتضحيات العراقيين والأمريكيين على حد سواء. ليست حرب العراق مناظرة يتم ربحها أو خسارتها؛ إنها مأساة.

في شارع هادئ شرقي بغداد، خلف حديقة ذات كراسٍ مرتبة في صفوف وسط العشب، كان هناك بناء صغير عادي من طابقين. كانت اللوحة التي على بابه الأمامي التي كتب عليها «مركز الجنة» لا تكاد ترى من الطريق، للمحافظة على السلامة. وقد تلقى د. باهر بطي، مدير العيادة، تحذيراً من أصوليين مجهولين بأن الجنة لا يمكن أن توجد على الأرض.

في الأعوام الثلاثة التي عرفته فيها، كان د. بطي يشكك بشكل دائم ومتزايد بدوافع الأمريكيين والسياسيين العراقيين والقادة الدينيين والدول المجاورة للعراق؛ ومع ذلك فقد تابع بإصرار كبير الفكرة الأولى التي خطرت بذهنه بعد سقوط النظام السابق: كان يريد أن يفتح «عيادة نفسية لإعادة التأهيل» تعيد بناء إنسانية أبناء بلده. كان د. بطي يؤمن بأن العراقيين بحاجة أن يتحدثوا ويفكروا ويتسامحوا بعد عقود من الديكتاتورية والحروب

والعقوبات والاحتلال. قدّم عرضاً لإقامة العيادة إلى سلطة الاحتلال والوزارات العراقية المتعاقبة، لكن أحداً منهم لم يقدّم له الدعم. وفي عام 2005، تبرّع مالك صحيفة في بغداد بالمال، وفي يناير 2006، قبل زيارتي مباشرة، تم افتتاح مركز الجنة أخيراً.

في غرفة الانتظار، علّقت رسومات تجريدية ذات ألوان زاهية رسمها المرضى. وفي أعلى الدرج الضيق، كانت هناك عدّة غرف انتظار صغيرة، خطط د. بطي أن يقيم فيها محاضرات، وأمسيات شعرية ودورات تدريب على الحاسوب واجتماعات لمجموعات الصحة العقلية النسائية. كان المركز متواضعاً وقليل الأثاث، لكنه كان يعطي شعوراً بأنه واحة للسكينة وسط القبح والعنف الطاحن في بغداد. قال د. بطي: «إذا كسبنا العناية الإنسانية لمرضانا فسيكون انعكاس ذلك حركة إنسانية في المجتمع كله، هذا المكان ليس مجرد معهد علمي. إنه أيضاً مكان للأدب والفن. نحن نحاول تثقيف الناس في مجال الاتصالات».

كان د. بطي يعيش في الدورة، الحي المختلط في جنوب بغداد الذي يسود فيه العنف بشكل خاص. «لا توجد اشتباكات مباشرة في الشوارع، لكن حين يُقتل واحد أو اثنان من معارفك كل يوم، فهذه حرب أهلية». كان معظم أصدقائه وزملائه يغادرون العراق، مع غالبية الطبقة المتعلمة في البلاد.

حين جلسنا في مكتبه، نحتسي الشاي، قال لي: «دعني أخبرك عن صراعي». كان صراعه بسيطاً: بين البقاء أو الرحيل. في أيار 2005، تعرّضت ابنته الصغيرة لإصابات بالغة حين أصيبت حافلة مدرستها بسيارة مفخخة. بعد ذلك أصرّت زوجه على أن تنتقل العائلة إلى أبو ظبي. ومع ذلك كان د. بطي قد حقق أخيراً شيئاً ملموساً في العراق، وكان الرحيل الآن كالتخلي عن طفل. قال بطي: «أشعر كأنني شخص قُطع من جذوره».

كان قرار د. بطي يعتمد ما سيحدث في الأشهر القليلة القادمة، وعلى تشكيل حكومة جديدة. لم يكن لديه كثير من الأمل بالتحسن في أي وقت قريب، لكنه كان يبحث عن إشارة على الاستقرار. أضاف بطي: «وإلا فإنها ستتحول إلى حرب أهلية، وسنخسر كل شيء، ولن يكون هناك شيء يمكن فعله هنا. إما أن يحدث شيء هذه السنة أو لن يحدث أبداً، لا يعتقد أي من العراقيين بأن عليكم الرحيل غداً. صدّقني. حتى القادة السنيين، إنهم يعلنون ذلك

في وسائل الإعلام، لكن ذلك للاستخدام الشعبي، إن جاز التعبير. إنهم يعرفون أننا لا نستطيع أن نجعل الجيش الأمريكي يغادر البلاد الآن؛ لأن جورج بوش قد أحدث الفوضى، وعليه أن ينظفها، اعذرني لقولي ذلك». استهجن وابتسم بطريقته المتألمة: «لقد ارتبطنا مع المحتلين بزواج كاثوليكي. ولا يمكن الحصول على الطلاق».

مشى معي إلى الحديقة التي أضاءتها الشمس. كانت هناك سيارة تمرّ أمامنا ببطء. وقد نسيت ساعةً أن أخاف، ولأننا كنا نودّع بعضنا فقد كنت متردداً بالذهاب. في السابق كنا نتصافح دوماً، لكن هذه المرة قبّلني د. بطي من وجنتيّ، حسب الطريقة العراقية. ربما شعر، كما شعرت، أننا قد لا نلتقي مجدداً إلا بعد وقت طويل.

أيار 2006

obeikandl.com